مقدمة

عندما أرخت الحركة القومية في أدوارها المتعاقبة تبينت مبلغ ما للشعر الوطني من أثر عميق في التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية في نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة في تاريخ مصر القومي، ومن يومئذ وأنا تواق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفراً منفرداً، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطني، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التي أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

ولقد كنت أرجو أن أضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء، وعينت فعلاً بأن أقتبس في شتى المناسبات، ولكنني وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفي للتنويه بفضلهم، وإبراز مبلغ مساهمتهم في غرس الشعور الوطني في نفوس الأجيال المتعاقبة، فواعدت نفسي أن أتفرغ يوماً لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية، وهأنذا أوفي بوعدي.

وإني لأشعر أني بإخراج هذا الكتاب، أؤدي واجباً نحو أولئك الشعراء، ونحو الحركة الوطنية ذاتها، فالشعراء الذين استلهموا وحي الوطنية في قصائدهم، واهتزت لها مشاعرهم، واستجابوا إلى نداء الوطن في عالم الشعر والفن والخيال، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم، وترجماناً لهم في آمالهم وآلامهم، وأحاسيسهم وأهدافهم، هؤلاء خليقون جميعاً بتقدير الوطن وثنائه، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم في سجل واحد.

على أني لا أقصد تقديراً لهم فحسب، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم، وإذا كان مما تعمد إليه الأمم أن تغذي أبنائها بالأناشيد الوطنية، فأجدر بنا أن نشيع الشعر الوطني ونجعله في متناول المواطنين جميعاً، رجالاً ونساء، شيباً وشبانا، فكلنا في حاجة إلى أن نستذكر تكل القصائد الغر التي تملأ النفوس وطنية وإيماناً، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة، والتفاني في أداء الواجب الوطني، فعللها تدفعنا إلى السير دائماً إلى الأمام، غير متوانين ولا متنابذين، مستمسكين بالمثل العليا في حياتنا القومية.

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية– إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه– في قطعة من تاريخ الحركة الوطنية، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب، والأدب الوطني له الأثر الذي لا ينكر في تكوين المواطن الصالح، والشعر بما يطبع في نفس الشاعر من التحليق في سماء الخيال، والتطلع إلى المثل العليا، يمهد للنهضات الوطنية ويبعثها ويغذيها، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة، ويستحثها على النفور من الذل، وإباء الضيم، وحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد، وشعراء الوطنية في مصر لهم في هذه الناحية فضل عميم، فكم ناصروا الحركة الوطنية في مختلف عهودها، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم، وسجلوا حوادثها الهامة، وأشادوا بمفاخر الشغب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته، وتنتصف له من المظالم التي حاقت به، وإن كثيراً من روائع الأدب التي جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية، وكان الشباب يحفظها عن ظهر قلب، فتذكي في نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية.

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر في نفوس المواطنين وستحركها على الدوام، مهما تقادمت عليها الأعوام، ألست ترى إلى نشيد المارسلييز؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويثير في نفوسهم روح الجهاد والفداء، ويقدرون له قدسيته الفنية والوطنية.

ولعل في جمع عيون الشعر الوطني في كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء في إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوي يتجدد على تعاقب العهود والعصور، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفاناً لفضلهم، وتقديراً لذكرياتهم، وما أجمل وفاء الأمم لمجاهدين السابقين من بنيها، في مختلف الميادين، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر، ولا هي وقف عليه، بل هي ثمرة الجهود المتواصلة التي يتوارثها المواطنون جيلاً بعد جيل، وما أضعف الروح الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد، لأنها بذلك تكون رخوة البناء، مقفرة المعالم، أما الوطنية الوطيدة الأساس، العالية الذري، فهي التي تجمع بين مجد الماضي، وجهاد الحاضر، وأمل المستقبل.

إن في قيثارة الشعر سلوى للقلب، وغذاء للروح، وإنها لتوحي إلى النفوس أسمي معاني الإنسانية، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية.

هذه المعاين والخواطر. هي التي ألهمتني إخراج هذا الكتاب، وكم يطيب لي أن أنشر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم، بل تسنينا أسماء بعضهم، في حين أن

فضلهم لا يصح أن ينسي وآثارهم في بعث الوطنية لا تمحي، والأدب في حاجة إلى استذكار أشعارهم، فإنها حقاً عماد الأدب الرفيع وكيانه، وهذه الأشعار هي في ذاتها سبيل لنشر الثقافة الوطنية بين أفراد الشعب في مختلف طبقاته.

obeikandl.com

من أين نبدأ

لقد ساءت نفسي قبل أن أرسم. خطوط الكتاب: من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطني؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد شوقي وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها في أحياء مشاعرنا الوطنية؟ إننا إذ نحدد هذه البادية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطني، وأغفلنا مرحلة سبقت شوقي وحافظ، وهذا ما لا يقره الحق والإنصاف ولا يرضاه شوقي وحافظ، علي علو كعبهما وبلوغهما الذروة بين شعراء الوطنية.

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على شوقي وحافظ.

إنني عندما أرخت مصطفى كامل بحثت في بداية الحركة الوطنية الحديثة، وتساءلت هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه لها، أم أن لها بداية سبقت ظهوره؟ وعلى أنني تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذي له هو من البواعث على إخراجي لتاريخه، كما نوهت إلى ذلك في مقدمة كتابي عنه، فإني قد وجدت في الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التي تقدمت عصر مصطفى كامل، لأقف عن حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحديثة، وانتهى بي البحث إلى أن بدايتها –في تاريخ مصر الحديث– ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر، ومن ثم تطورت الفكرة عندي من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ.

وأراني في تأريخ الشعر الوطني أميل إلى سلوك مثل هذا المنهج، فرجعت في بدايته إلى الماضي، ووجدت أن روح الوطنية– بمعناها الحديث– قد بدأت تدخل الشعر المصري، وتبعث فيه من حياتها وبهائها، وتضفي عليه من جمالها منذ أوائل القرن التاسع عشر، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاعة رافع الطهطاوي، فعالي هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطني في مصر، وهكذا يبدو التقارب بين ظهور الحركة الوطنية وظهور الشعر الوطني في تاريخنا الحديث.

فلنبدأ إذن برفاعة رافع الطهطاوي ولندرس تطور الشعر الوطني من بعده إلى وقتنا الحاضر.

ويطيب لي في صدد التنويه بشعراء الوطنية، أن اعتذر عما فاتني من تأريخهم، وأعوزني الحديث عنه/ فأني أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية في شعره، فإذا كان فاتني أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأياً تقديرياً، وأن يكون شعرهم الوطني قد بدا لي مغموراً في بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغض بداهة من منزلتهم في عالم الشعر والأدب، وحسبي عذراً وحسبي عذراً لي أن رأيي التقدير في تخير شعراء الوطنية كان نتيجة دراستها مستفيضة، عكفت عليها سنين عديدة، ولم أقتصر على ما وعته ذاكراتي من الشعر الوطني في مختلف المناسبات، ولا على دواوين الشعراء، بل هذبت أستقصي الشعر الوطني في مجاميع الصحف والمجلات، عاماً بعد عام، قرابة نصف قرن من الزمان، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم ينشر من قبل في كتاب أو ديوان، ومع ذلك فإذا نبهنى القارئ الكريم إلى شاعر فاتني الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فإني على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص في الطبعة التالية من الكتاب، لأني أود حقاً أن استكمل أي نقص بدا مني في هذه الناحية، وليس أحب إلى نفسي من أن أسجل في كتابي كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطني.

والله أسأل أن يكون في هذه الدراسة ما يعين على نشر الأدب الوطني وإذاعته، وتعميمه بين المواطنين، والحمد لله أولاً وأخيراً.

يونيه سنة ١٩٥٤

عبد الرحمن الرافعي

obeikandl.com